

المحاضرة الخامسة

التصنيف المعرفي والتاريخي لتطور النظرية السوسيولوجية المعاصرة

تمهيد

تطورت النظرية السوسيولوجية عبر مسارات متشابكة: أولها التسلسل التاريخي للمؤلفين الموسوعيين الذين استجابوا للتحويلات السوسيو-سياسية مثل التصنيع (Industrialization)، والتحضر (Urbanization)، والبيروقراطية (Bureaucratization)؛ وثانيها الترسخ المعرفي للمشكلات المفاهيمية الرئيسية، ومنها: الوقائع الاجتماعية (Social Facts) مقابل الفعل الاجتماعي (Social Action)؛ والبنى الماكروية/ الكلية (Macro Structures) مقابل التفاعلات الميكروية/ الجزئية (Micro Interactions)؛ والتكامل الوظيفي (Functional Integration) مقابل الصراع والقوة (Conflict and Power)؛ والعقلنة (Rationalization) مقابل الفهم التواصلي (Communicative Understanding).

أولاً: التشكيل الكلاسيكي (1830-1920 تقريباً): الوضعية، والوقائع الاجتماعية، والعقلنة، والفردانية الحضرية

1- كونت والبرنامج الوضعي (Comte and the Positivist Program)

أرست الفلسفة الوضعية لـ أوغست كونت (Auguste Comte) دعائم علم الاجتماع كفرع علمي ينضبط بقانون المراحل الثلاث (Law of Three Stages): اللاهوتية، والميتافيزيقية، والوضعية؛ داعياً إلى هرمية للعلوم ومنهج تاريخي للتقصي الاجتماعي. افترض كونت أن المعرفة تتقدم عبر ملاحظة العلاقات بين الوقائع الأمبيريقية (التجريبية)، رافضاً الميتافيزيقيا التأملية كأرضية للتفسير. في كتابه دروس في الفلسفة الوضعية - (Cours de philosophie positive) كما اختصرته مارتينو- يذكر كونت أن "كل فرع من فروع معرفتنا... يمر على التوالي عبر ثلاث حالات نظرية مختلفة"، مؤكداً على الانتظامات الأمبيريقية كأساس للتفسير (Comte 1830-42/2000: 27-29).

من الناحية المعرفية، ركز برنامج كونت على الأحادية الإستمولوجية - (Epistemic Monism) باعتبار العلم هو الحكم الوحيد للمعرفة الاجتماعية- وعلى بنيوية جنينية (Embryonic Structuralism)، ممهداً الطريق للتحليلات الوظيفية اللاحقة عبر افتراض أن النظام الاجتماعي محكوم بقوانين موضوعية. وتاريخياً، قدم هذا البرنامج الميثاق التأسيسي لمأسسة علم الاجتماع.

2- دوركهايم: الوقائع الاجتماعية والقواعد المنهجية

قام إميل دوركهايم (Émile Durkheim, 1858-1917) بتقنين منهج علم الاجتماع في كتابه **قواعد المنهج في علم الاجتماع** (The Rules of Sociological Method)، معرّفاً **الوقائع الاجتماعية** (Social Facts) بأنها "طرق للفعل والتفكير والشعور، تكون خارجية عن الفرد، وتتمتع بقوة قهرية: (Durkheim 1895/1982: 59). وقد وضع بروتوكولات صارمة للملاحظة، والتمييز بين ما هو سوي وما هو مَرَضِي، والتفسير عبر التحليل السببي بين الوقائع الاجتماعية (Durkheim 1895/1982: 48–60, 108–119). ومن الناحية المنهجية، سعى دوركهايم لتحرير علم الاجتماع من "الزعة النفسية" عبر التأكيد على استقلالية المستوى الاجتماعي.

أما التحليل الوظيفي اللاحق لـ دوركهايم -عبر تقنين روبرت ميرتون (Robert Merton) له- فيميز بين **الوظائف الظاهرة** (Manifest Functions) و**الوظائف الكامنة** (Latent Functions)، موجهاً التفسير نحو الاعتماد المتبادل النسقي بدلاً من مجرد الغائية (Merton 1968: 92–99). وتكتمل هذه النقلة الوظيفية مع قواعد دوركهايم المنهجية من خلال توضيح كيف تحافظ المؤسسات على التكامل الاجتماعي وكيف يزعزع الاغتراب/الأنوميا (Anomie) السلوك المنسق معيارياً (Merton 1968: 198–205).

3- فيبر: علم الاجتماع التأويلي، نمذجة السلطة، والعقلنة

أعاد ماكس فيبر (Max Weber) توجيه الإدراك السوسيولوجي من "الوقائع الاجتماعية" المتشينة إلى **الفعل الاجتماعي** (Social Action) الهادف أو "الفهم التفسيري" (Verstehen)، مصنفاً الفعل إلى: عقلانية أدائية، وعقلانية قيمية، وفعل عاطفي، وفعل تقليدي (Weber 2019: 77–85). وقد اشتهر بتمييزه بين **أنماط السلطة**: (Types of Authority) التقليدية، والكاريزمية، والقانونية العقلانية؛ كما حلل **البيروقراطية** (Bureaucracy) كذروة للعقلنة الحديثة (Weber 2019: 139–143, 335–338). ويؤطر نقاش فيبر حول **العقلانية الصورية والموضوعية** (Formal and Substantive Rationality) في الاقتصاد والإدارة ما يسمى بـ "**القفس الحديدي**" (Iron Cage) "للحدائنة المتمثل في البنى الحسابية" (Weber 2019: 86–90).

تاريخياً، رصدت تصنيفات فيبر التحولات المؤسسية لرأسمالية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين -من إدارة مهنية، وشكلانية قانونية، وتوسع السوق- موفرة مخططات دائمة لتحليل الدولة والاقتصاد. ومعرفياً، وضع فيبر علم الاجتماع عند تقاطع التأويل والكفاية السببية، موازناً بين الهرمنيوطيقا (التأويلية) والتصنيف التحليلي.

4- زيمل: المدينة الكبرى والأسس الميكروية للحياة الحديثة

صاغت مقالة جورج زيمل (Georg Simmel) المعنونة "المدينة الكبرى والحياة الذهنية (The Metropolis and Mental Life)" الأسس النفسية للفردانية الحديثة وسط المحفزات الحضرية، واقتصاد المال، والتمايز الاجتماعي. وجادل بأن المدينة تكثف الاستثارة العصبية، مما يعزز "الموقف اللا مبالي (Blasé Attitude)" والعلاقات الحسابية التي يتوسطها المال (Simmel 1903/1950: 409–414, 420–424). هذا المنظور السوسيولوجي الميكروي يكمل التحليلات الماكروية (الكلية) للعقلنة عبر تسليط الضوء على التكيفات المعرفية اليومية مع الحياة المتروبوليتانية.

معرفياً، يقدم زيمل رؤية تفاعلية مبكرة تشمل: أشكال التنشئة الاجتماعية (Forms of Sociation) كالمبادلة والصراع والموضة، والوساطة الرمزية عبر المال. وتاريخياً، يمثل زيمل المنعطف الحضري في النظرية الحديثة، ممهداً الطريق لعلم الاجتماع الثقافي وعلم النفس الاجتماعي للحضريّة.

ثانياً: ترسخ منتصف القرن (1930–1970 تقريباً): البنائية الوظيفية، ونظرية المدى المتوسط، والتعددية المنهجية

1- بارسونز: بنية الفعل الاجتماعي والتكامل النسقي

قام تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) بتوليف الفكر الأوروبي (مارشال، ودوركايم، وفيبر) في نظرية طوعية للفعل وإطار وظيفي نسقي. في كتابه **بنية الفعل الاجتماعي** (The Structure of Social Action)، جادل لصالح **التكامل المعياري** (Normative Integration) لأنساق الفعل، مقدماً مخططاً تحليلياً حيث تقوم القيم والمعايير والأدوار بتنسيق النظام الاجتماعي (Parsons 1937/1949: 89–102, 777–793). وقد مهد هذا الطريق لعملية النسقنة اللاحقة في كتابه **النسق الاجتماعي** (The Social System)، وإن كان التركيز هنا ينصب على التأسيس المنطقي لنظرية الفعل التي تجسر الهوة بين الدوافع الفردية والبنى الاجتماعية.

تاريخياً، تزامن تأليف بارسونز مع التوسع المؤسساتي وفلسفة الحكم التكنوقراطي (Technocratic Governance) في مرحلة ما بعد الحرب؛ أما معرفياً، فقد منح الأولوية للتوازن والمتطلبات الوظيفية (Functional Requisites)، وأحياناً كان ذلك على حساب مفاهيم الصراع والقوة.

2- ميرتون: نظرية المدى المتوسط والتحليل الوظيفي

أعاد روبرت ميرتون (Robert Merton) صياغة الوظيفية من خلال نظريات **المدى المتوسط** (Middle-Range Theories) وهي نظريات ليست تجريديات كبرى ولا مجرد تعميمات أمبيريقية بسيطة (Merton 1968: 59–63). وقد صقل التحليل الوظيفي عبر التمييز بين الوظائف الظاهرة والكامنة، والاختلالات

الوظيفية (Dysfunctions)، ومن خلال تنظير مفاهيم مثل الأنوميا، والجماعات المرجعية (Reference Groups)، والنبوءة المحققة لذاتها (Self-fulfilling Prophecies) (Merton 1968: 92–99, 198–205, 473–477, 287–340). وقد ركز هذا التحول المعرفي على البحث الأمبيريقى الموجه نظرياً، مقاوماً بذلك بناء النسق التأملى والنزعة الأمبيريقية اللا نظرية.

استجاب برنامج ميرتون للتعددية المنهجية في منتصف القرن (البحث المسحي، الدراسات التنظيمية) مع الاحتفاظ بالحس الوظيفي. وتاريخياً، دمج علم الاجتماع مع البحوث المؤسسية في مجالات البيروقراطية، والعلم، والاتصال الجماهيري.

ثالثاً: تحولات الحداثة المتأخرة (1970–الوقت الحاضر): التواصل، والهيكل، والممارسة، والانعكاسية

1- هايبرماس: العقلانية التواصلية والتمييز بين "عالم الحياة" و"النسق"

اقترح يورغن هايبرماس (Jürgen Habermas) نظرية في الفعل التواصلية (Communicative Action) حيث ينشأ التكامل الاجتماعي من خطاب عقلاني موجه نحو التفاهم المتبادل، على النقيض من تكامل النسق (System Integration) المدفوع بالمال والقوة. يطور المجلد الأول العقلانية التواصلية كبديل للعقلانية الأداتية؛ بينما يشرح المجلد الثاني مفهومي عالم الحياة (Lifeworld) والنسق، مشخصاً "استعمار" الحداثة لعالم الحياة عبر الضرورات البيروقراطية والسوقية (Habermas 1984: 1–37; 1987: 153–197). ومعرفياً، ينقل هايبرماس العقلنة من الحساب الصوري لدى فيبر إلى التبرير بين-الذاتي، مؤسساً النقد على أخلاقيات الخطاب (Discourse Ethics).

تاريخياً، يتناول هايبرماس دول الرفاه في الرأسمالية المتأخرة، والمجالات العامة، وأزمات المشروع، مقدماً نظرية معيارية للحداثة تحافظ على عقلانية التنوير مع نقد أمراضها النسقية.

2- جيدنز: نظرية الهيكلية – ازدواجية البنية

يطرح كتاب أنتوني جيدنز (Anthony Giddens) المعنون ببناء المجتمع (The Constitution of Society) نظرية الهيكلية (Structuration Theory)، التي تحل ثنائية "الفاعل-البنية" عبر افتراض ازدواجية البنية (Duality of Structure)؛ فالبنى هي وسيلة ونتيجة للممارسات الاجتماعية في آن واحد، ويتم إعادة إنتاجها عبر الزمان والمكان من خلال السلوك الروتيني (Giddens 1984: 1–16, 162–173). ويربط بين الوعي العملي (Practical Consciousness)، والانعكاسية، والأمن الأنطولوجي (Ontological Security) وبين إعادة الإنتاج الاجتماعي اليومي، متحدياً النظريات النسقية الحتمية مع الحفاظ على فكرة النظام الماكروي.

ومعرفياً، يدمج جيدنز الأسس الميكروية التأويلية (الحضور المشترك، اللقاءات) مع التحليل المؤسسي الماكروي (الأقلمة، القوة). وتاريخياً، ينخرط في قضايا المخاطرة في الحداثة المتأخرة، والعولمة، وتحديث الانعكاس (Reflexive Modernization).

3- بورديو: الممارسة، والهائيتوس، والمجال، والقوة الرمزية

بنى بيير بورديو (Pierre Bourdieu) في كتابه *الخطوط العريضة لنظرية الممارسة* (Outline of a Theory of Practice) إطاراً "براكسيولوجياً" (Praxeological) "يتكون من: الهائيتوس (Habitus/ الاستعدادات المجسدة)، والمجال (Field/ الميادين الاجتماعية المهيكلية)، ورأس المال (Capital/ الاقتصادي، والثقافي، والاجتماعي، والرمزي). يرفض بورديو كلاً من البنيوية الموضوعية والطوعية الذاتية، مجادلاً بأن الممارسات تتولد عن خطاطات منقوشة في الأجساد، موجهة بـ *منطق عملي* (Practical Logic) وقوة رمزية الراسخ (والأرثوذكسية والهرطقة كيف يستمر الهيمنة عبر تصنيفات تُؤخذ كمسلمات: Bourdieu 1977: 72–99, 159–171, 183–198). ويوضح تحليله لمفاهيم *الدوكسا* (Doxa/ الاعتقاد) (Bourdieu 1977: 159–165).

تاريخياً، تعد دراسات بورديو الميدانية في الجزائر ودراساته للنظام التعليمي الفرنسي نموذجاً لنظرية سوسيولوجية الحداثة المتأخرة القائمة على أساس أمبيرقي، حيث تكشف كيف تقوم المؤسسات بتحويل أنواع رأس المال وإعادة إنتاج التفاوت، ممهدة الطريق للنقاشات المعاصرة حول إعادة الإنتاج الثقافي والعنف الرمزي (Symbolic Violence).

رابعاً: الديناميات التاريخية والركائز السياقية

1- التصنيع، والتحضر، والدولة

يتزامن التشكيل الكلاسيكي مع الرأسمالية الصناعية، والتوسع الحضري، وبيروقراطية الدولة. حيث جاءت وضعية *أوغست كونت* (Auguste Comte) استجابة للفتت الفكري في أوروبا ما بعد الثورة؛ وقام *إميل دوركهايم* (Émile Durkheim) بنسقنة الأخلاق العلمية لتحقيق التماسك الاجتماعي؛ بينما نظر *ماكس فيبر* (Max Weber) السلطة القانونية العقلانية (Rational-legal Authority) في مواجهة النظم الكاريزمية والتقليدية؛ ووثق *جورج زيمل* (Georg Simmel) التكيف النفسي الحضري (Comte 1830–42/2000: 27–44; Durkheim 1895/1982: 48–60; Weber 2019: 139–143; Simmel 1903/1950: 409–414).

2- التوسع المؤسسي والتعددية في ما بعد الحرب

ازدهر علم الاجتماع في منتصف القرن داخل الجامعات، والحكومات، والصناعة، مما تطلب أدوات نظرية براغماتية. حيث تساوقت أنساق **تالكوت بارسونز** (Talcott Parsons) مع تنسيق **دولة الرفاه** (Welfare-state)؛ وخدم منطق المدى المتوسط لدى **روبرت ميرتون** (Robert Merton) البحوث البرامجية في المنظمات والعلم، مصفياً التحليل الوظيفي مع معالجة قضايا الأنوميا والشخصية البيروقراطية (Bureaucratic Personality) (Merton 1968: 198–205, 259–271, 571–589).

3- انعكاسية الحداثة المتأخرة، العولمة والتواصل

منذ السبعينيات فصاعداً، اهتم المنظرون بـ **تحديث الانعكاس** (Reflexive Modernization)، والشبكات العالمية، والمجالات العامة. حيث نقل **يورغن هابيرماس** (Jürgen Habermas) مشكلة العقلنة نحو التبرير المعياري؛ ومركز **أنثوني جيدنز** (Anthony Giddens) مفاهيم الانعكاسية والتباعد الزماني-المكاني (Time–space Distanciation)؛ وأثبت **بيير بورديو** (Pierre Bourdieu) آليات إعادة الإنتاج الرمزي عبر المجالات. وقد أعاد كل منهم صياغة القوة والتنسيق بما يتجاوز النماذج الوظيفية أو الأداتية البحتة (Habermas 1984: 1–37; Giddens 1984: 110–173; Bourdieu 1977: 159–171).

خامساً: كيف تترابط النماذج المعرفية وتختلف؟

1- من الوحدة الوضعية إلى التعددية المنهجية

تصور **كونت** علماً موحداً؛ ومنح **دوركهيم** استقلالية منهجية لعلم الاجتماع؛ وأصر **فيبر** على التأويل؛ وتحول **زيمل** نحو الأشكال الميكروية؛ ثم قام **بارسونز** و**ميرتون** بمأسسة التوجهات الوظيفية والمدى المتوسط؛ وصولاً إلى **هابيرماس** و**جيدنز** و**بورديو** الذين أعادوا إدخال المعيارية والانعكاسية والممارسة إلى قلب العلم. إن المسار المعرفي ليس إحلالاً خطياً بل هو "تراكم طبقي"؛ فعلم الاجتماع الحديث يحتفظ بأنطولوجيات ومناهج متعددة لأن كل منها يحل مشكلات أمبيريقية ومعيارية متميزة.

نقاط التقارب (Convergences)

- **النظام والتنسيق**: يعبر كل من التكامل الدوركهايمي، والعقلانية الصورية الفيبيرية، والتنسيق التواصل الهابيرماسي عن آليات مختلفة للنظام الاجتماعي يمكن أن تتعايش داخل المجتمعات المعقدة.
- **الفاعلية وإعادة الإنتاج**: تعالج كل من نمطية الفعل عند **فيبر**، وازدواجية البنية عند **جيدنز**، وهايبيتوس **بورديو** الرابط بين الميكرو والماكرو دون محو أي من الطرفين.

نقاط التباين (Divergences)

- **الأسس المعيارية:** تدعو أخلاقيات الخطاب (Discourse Ethics) لدى هايرماس إلى العقلانية الإجرائية لتحقيق المشروعية، بينما يؤكد بورديو على الهيمنة الرمزية وسوء الإدراك (Misrecognition)؛ في حين يظل فيبر "محايداً قيمياً"، مقدماً نماذج مثالية بدلاً من وصفات علاجية (Habermas 1984: 1–37; Bourdieu 1977: 159–171; Weber 2019: 77–85).
- **الوظيفة مقابل الصراع:** يتباين التكامل الوظيفي (بارسونز/ميرتون) (مع تحليلات القوة والهيمنة) فيبر/بورديو (ومع نقد هايرماس لاستعمار النسق (Parsons 1937/1949: 89–102; Merton 1968: 92–99; Weber 2019: 139–143; Bourdieu 1977: 159–171; Habermas 1987: 153–197).

خاتمة:

إن التصنيف المعرفي والتاريخي يوضح كيف انتقلت النظرية السوسيولوجية الحديثة من الوحدة الوضعية إلى الانعكاسية التعددية؛ مع الحفاظ على الصرامة المنهجية (دوركايم)، والدقة التأويلية (فيبر)، والرؤية الوظيفية (ميرتون)، والنقد المعيارى (هايرماس)، بالتوازي مع دمج نظريات الممارسة (بورديو) والهيكلية (جيدنز). (وبدلاً من إقصاء النظريات السابقة، تراكبت الأطر المعاصرة فوق القواعد الكلاسيكية، مما مكن علم الاجتماع من تحليل ظواهر معقدة ومتعددة المستويات، تشمل: الدول والأسواق، والمدن والدوات، والمؤسسات والاستعدادات المجسدة.

إن هذه البنية التعددية (Plural Architecture) هي السمة المميزة للنظرية السوسيولوجية الحديثة؛ فهي بمثابة "صندوق أدوات" تُختار عناصره وفقاً للمشكلة الأمبيريقية والرهانات المعيارية المطروحة. ويكمن مستقبل النظرية السوسيولوجية، على الأرجح، في مزيد من التكامل؛ عبر ربط العقلانية التواصلية بنظرية الممارسة، ومزج الهيكلية بتحليل المجال، ودمج الرؤى النقدية حول العرق ضمن تحليلات العقلنة والبيروقراطية، مع الاحتفاظ بالتزام هذا التخصص العلمي بالتفسير، التأويل والنقد.